أثر القرآن
في إصلاح القلوب

محاضرة مفرغة ألقيت يوم: 20 ربيع الثاني 1434 هـ
ضمن «جائزة رأس الخيمة للقرآن الكريم الرابع عشرة».

فضيلة الشيخ الدكتور

سليمان بن سليم الله الرحيلي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الملك القدوس السلام الرحيم الرحمن العلّام، أنزل علينا خير الكلام، وجعل تلاوته مطهِّرة للقلب من الأدران والآثام، وأنعمَ علينا بالإسلام، وأكملَ لنا الدين، وأتمّ علينا الإنعام. وأشهد أن لَا إله إلا الله وحده لا شريك له المعبود الحق على الدوام، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسولُه؛ المبعوثُ رحمة للأنام، من التزم سنته اهتدى واستقام، ومن أعرض عن دينه تخبَّط في دياجير الظلام، ﷺ أتم صلاة وأزكى سلام، ورضي الله عن آله وأصحابه الطيِّبين الأعلام. أمّا بعد:أمّا بعد:

فمعاشر الكرام؛ أُحييكم بتحية أهل الإسلام، تحية أهل الجنة؛ فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أَهْـلًا وَسَهْـلًا بِالذَّيـنَ أُحِبُّـهُمْ وَأَوَدُّهُـــمْ فِي اللهِ ذِي الآلاَءِ

أيها الأحبة؛ إنّ خير ما يَجتمع عليه العباد: علمٌ مبنيٌّ على: قال الله قال رسوله ﷺ؛ تَصلُح به القلوب، وتَستقيم به الحياة، ويَصبر به الإنسان على مرارة الدنيا.

إنّ هذا الاجتماع في هذا المسجد المبارك مِن القُربات إلى الله -عز وجل- لِمَن حسُن قصده، فنسأل الله -عزوجل- أن يرزقنا جميعًا الإخلاص، وأن يجعلنا من عباده الصالحين الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه.

أيها الفضلاء، أيها الأخيار، أيها الحضور، خلق الله -عز وجل- الإنسان ليكون خليفةً في الأرض، وليَعمرَها بأعظم عمارة؛ ألا وهي توحيد الله -سبحانه وتعالى-، وجعل في الإنسان مُضغةً إذا صلُحتْ صلُح الجسد كله، وإذا فَسدت فَسد الجسد كله؛ ألا وهي القلب.

فهذه المضغة صغيرة الحجم، كبيرة الأثر، تتوقف عليها حياة الإنسان الحسية والمعنوية، وهي قابلةٌ للصلاح والفساد، فقد تكون صحيحةً صالحةً سليمةً؛ ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشعراء: ٨٩]. وقد تكون مريضةً عمياء صماء؛ ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ

﴿ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج: ٤٦].

وخير الناس من صَلُح قلبه وأثمر صلاحًا على ظاهره. وشرُّهم وأقبحهم مَن أظهر صلاحًا في ظاهره وباطنه فاسدٌ مظلم.

ولذا؛ قال رسول الله ﷺ: « **إنَّ الله لا ينْظُرُ إلى أجْسَامِكُمْ، ولا إلى صُوَرِكمْ، وَلَكن ينْظُرُ إلى قُلُوبِكمْ وأعمالكم**»(١) وأشار بأُصبُعه الشريفة ﷺ إلى صدره.

فصلاح الأجساد وصلاح الظاهر -حقيقةً- موقوفٌ على صلاح القلوب، فإذا صَلحتِ القلوب صلح الجسد كلُّه؛ وفي الحديث: «**لا يستقيم إيمان عبدٍ حتى يستقيم قلبُه**»(٢).

ولن يكون في الأرض صلاحٌ إلا بصلاح القلوب، فالاهتمام بصلاحها أعظم الفرائض، وأهم الأمور.

وما عرفتِ البشرية طريقًا للإصلاح أعظم من القرآن، وكيف لا يكون كذلك وهو كلام الله -سبحانه وتعالى- الذي أنزله على أشرف رُسلِه وخاتم أنبيائه وأعظم أوليائه؛ محمد بن عبد الله ﷺ، والذي وصفه -سبحانه وتعالى- بأوصافٍ كثيرة تدل على عظمته وبركته وعظيم تأثيره وشموله.

يقول ربنا -سبحانه وتعالى-: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [يوسف: ٢].

ويقول -سبحانه-: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص: ٢٩].

ويقول -سبحانه-: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

فالله -عز وجل- وصف القرآن بكونه مباركًا وأمر باتباعه، وبيّن أنّ الهدى كلَّ الهدى في كتابه -سبحانه-؛ فقال: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]، فتأمل قول ربنا -سبحانه وتعالى-: ﴿لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ فأقْوَم طريق وأسلم طريق. والطريق المستقيم هو ما يدل عليه كتاب

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) ، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله. من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ١٩٨). من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. وحسّنه الألباني في السلسلة الصحيحة: (٦/ ٨٢٢).

الله -سبحانه وتعالى-، ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١]، مُلئ مواعظَ وتذكيرًا، ولذلك يكون وقعُه على القلوب السليمة وقعًا شريفًا كريمًا؛ ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ [الحشر: ٢١].

كلام الله -سبحانه وتعالى- فيه بيانٌ لكلِّ شيء، وشفاءٌ لما في الصدور؛ ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ٨٩﴾ [النحل: ٨٩].

هذا الكتاب يُخرج الناس من كلِّ ظلمة إلى خير النور؛ ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١﴾ [إبراهيم: ١].

فهذا القرآن فيه الشفاء، وفيه الصلاح، وفيه الخير، وفيه السعادة، ولن تَصلح القلوب أبدًا إلا بكلام ربنا -سبحانه وتعالى-، كما قال ربنا: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وكما قال ربنا -سبحانه وتعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [يونس: ٥٧]، فالقرآن شفاءٌ من كل داء، شفاءٌ لهذه الصدور، شفاءٌ للقلوب من كلِّ شيء قبيح، يَغسل القلب غَسلًا ويُطهِّره تطهيرًا.

إلا أنّ أثر القرآن -أيها الإخوة- في إصلاح القلوب مشروطٌ بشرطٍ عظيم؛ مشروط بالمَحلِّ القابِل؛ كما قال ربنا -سبحانه-: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ٣٧﴾ [ق: ٣٧] فهذا شرطٌ لابد منه لكي يؤثِّر القرآن في قلب الإنسان، فلابد من قلبٍ حاضر، ولابد من سمعٍ مصغي، ولابد أن يكون الإنسان شهيدًا.

ولذا؛ يقول البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ عن هذا القرآن: "لا يجد طعمه إلا مَن آمن به"[1].

---

١) الصحيح ٩/ ١٥٥

القرآن له حلاوة، القرآن له لذةٌ عظيمة، لكنّ طعمه لا يُنال إلا لمن آمن به، وألقى السمع له، وكان قلبه حاضرًا شهيدًا.

ويقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "إذا أردت الانتفاع بالقرآن: فأَجمِع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألقِ سمعك، واحضر حضور من يخاطبه مَن تكلم به سبحانه منه إليه؛ فإنه خطابٌ منه لك على لسان رسوله ﷺ"[1]، الله أكبر! هل استشعرنا هذا؟ هل استشعرنا أنّ الله -عز وجل- يكلِّمنا بهذا القرآن؟ وما أعظم أثر هذا لو أيقنّا به تمام الايقان!

ويقول ابن قتيبة رَحِمَهُ اللَّهُ: " إِذا حصل الْمُؤثّر وَهُوَ الْقُرْآن وَالْمحل الْقَابِل وَهُوَ الْقلب الْحَيّ وَوُجد الشَّرْط وَهُوَ الإصغاء وانتفى الْمَانِع وَهُوَ اشْتِغَال الْقلب وذُهوله عَن معنى الْخطاب وانصرافه عَنهُ إِلَى شَيْء آخر حصل الْأَثر وَهُوَ الِانْتِفَاع والتذكُّر "[2].

كثيرٌ من الناس يقولون: إنا نسمع القرآن لكن لا يَحصل لنا خشوع ولا يَحصل لنا تذكُّر، وما ذاك إلا لتقصيرٍ منهم، وإلا فكلام الله حاصلٌ أثره في القلوب؛ إذا وُجد المَحلّ القابل وتَحقَّق الشرط وانتفى المانع.

كثيرٌ من الناس يقرؤون كلام الله وقلوبهم منصرفة، قد يَدور اللسان بالألفاظ لكن القلب يَدور في الآفاق؛ فكيف يتأثّر مثلُ هذا القلب بكلام الله -سبحانه وتعالى-؟!

فينبغي علينا -أيها الإخوة- أن نعالج قلوبنا عند تلاوة كلام ربنا، بأن نحرص تمام الحرص على أن تكون قلوبنا حية مستعدة لقبول الخير في كلام ربنا -سبحانه وتعالى، وأن تكون أسماعنا مصغية، وأن تكون قلوبنا حاضرة، وأن نجاهد أنفسنا عن الانصراف عن الشواغل والتفكير الذي يحرص عليه الشيطان.

---

١) الفوائد ص ٣

٢) المصدر السابق ص ٣

والله ما بدأ مسلم يتلو القرآن إلا جاء الشيطان يذكِّره: اُذكر كذا، اُذكر كذا، اِفعل كذا، فكِّر في كذا، الأمة تعاني من كذا، الناس بحاجة إلا كذا، تَذكَّر من العلم كذا، لِمَ؟ ليَصرفه عن سماع كلام الله حقًّا وعن تدبُّر كلام الله صدقًا؛ لأنّ إبليس يعلم علم اليقين أنّ المسلم لو سمع كلام الله وأصغى لكلام الله لاستعصى عليه أيَّما عصيان ولَمَا استطاع الشيطان أن يوقعه في العصيان.

وصلاح القلوب -أيها الإخوة- يكون بالتخلية والتحلية؛ بتخلية القلب من الفساد، وتحليته بالصلاح.

وأعظم أثر القرآن في القلوب إصلاحًا: أثره في تحقيق التوحيد والبراءة من الشرك وأهله.

فأجلُّ علوم القرآن على الإطلاق: علم التوحيد وما لله من صفات الكمال. فإذا مرّ على القلب الآيات في توحيد الله وأسمائه وصفاته واستشعر القلب معاني هذه الصفات أثمر ذلك في قلبه صلاحًا عظيمًا وإقبالًا على الخير عظيمًا. وإذا أقبل القلب على الآيات وفهمها وفهم المراد بها، وأثبت الصفات لله -عز وجل- على وجهٍ يليق بجلال الله -سبحانه وتعالى-؛ امتلأ قلبه مِن معرفة الله سبحانه وتعالى-، وامتلأ قلبه حبًّا لله -سبحانه وتعالى-، وأيقن أنه لا معبود حقٌّ إلا الله سبحانه وتعالى-، فيمتلئ صلاحًا وخيرًا وطمأنينة.

فالقلب -أيها الأحبة- لا سلامة له ولا صلاح له إلا بتوحيد رب العالمين.

وبقدر ما مع الإنسان من صدق التوحيد وسلامة الاعتقاد بمقدار ما يحصل له من سلامة الصدر وصلاح القلب؛ لأنّ القلب إنما خلقه الله -عز وجل- لمعرفة فاطره ومحبته وتوحيده وأن يكون الله أَحَبَّ إليه مما سواه وأرجى عنده من كلِّ ما سواه وأجلّ، فإذا تحقق هذا المقصود في القلب حصل له الخير وحصلت له السعادة وحصلت له الطمأنينة.

ويعظم الأثرُ في القلب إذا انضمَّ إلى معرفة الله معرفة رُسُل الله -صلى الله عليهم وسلم-، ومعرفة أحوالهم، وما جرى عليهم مع من وافقهم ومع من خالفهم، وما هم عليه من الصفات العالية والأخلاق الكريمة، فإنّ القلب إذا عَلِمَ هذا من كتاب الله أثمر ذلك في قلبه محبةً لرسل الله -صلى الله عليهم وسلم- واقتداءً بأخلاقهم، وعملًا بما هم عليه من الأعمال الصالحة، فتُثمر معرفته لهم ولأحوالهم وأعمالهم حبًّا عظيمًا لهم في القلب؛ يُثمر للقلب الاقتداء بهم، فيكون لقلب المُحِبِّ لهم حَظٌّ مِن صلاح قلوب الأنبياء بمقدار حُبِّه لهم وبمقدار اقتدائه بهم -عليهم السلام-.

وخيرُهم وأشرفُهم محمدُ بن عبد الله ﷺ. ومعرفة النبي ﷺ ومعرفة أحواله ومعرفة أخلاقه تثمر في القلب صلاحًا عظيمًا، ومحبةً كبرى له ﷺ، واقتداءً به، واتِّباعًا صادقًا؛ بالاهتداء بهديه ﷺ.

ويَصلُح القلب ويَعظم أثر القرآن في القلب: بأن يعلم علم أهل السعادة والخير في الآخرة والأولى، وأهل الشقاوة والشر في الآخرة والأولى: وفي معرفة القلب لأهل السعادة ولأوصافهم ولأحوالهم وللطرق التي أوصلتهم للسعادة في الدنيا والمنزلة العالية في الأخرى؛ ترغيبٌ للقلب في أفعالهم وفي أحوالهم وفي محبة الصالحين والاقتداء بهم.

وفي معرفة أحوال أهل الشر ومنازلهم والطرق التي أوصلتهم للشر وسوء حالهم في الدنيا وسوء حالهم في الآخرة؛ معرفة القلب بهذا تُثمر بغضًا لهم وبغضًا لطرائقهم وبُعدًا عنهم وبُعدًا عن صفاتهم، وهذا مِن أعظم ما يوصل العبد إلى دار النعيم، وينجيه الله -عز وجل- به من دار الجحيم، وهذا من أعظم أثر القرآن في قلوب العباد.

ويَصلُح القلب بالقرآن بأن يعلم منه العبد أنّ العبرة بصدق الإيمان وصلاح الأعمال؛ لا بدعاوى اللسان واتّباع الهوى والشيطان: فالقرآن يرشد العبد بأن العبرة بحسن حال الإنسان وإيمانه الصحيح وعمله الصالح، وأنّ الدعاوى المجرَّدة والاغترار بإعطاء الله للعبد ما يشاء من

الدنيا من الرئاسات والأمور الدنيوية والتقاليد الموروثة أنّ ذلك مِن طرق المنحرفين عن الحق ولا يُنتِج خيرًا ولا يُثمر حقًّا.

والإنسان فقيه نفسه وطبيب أمره، فإذا أردتَ -يا عبد الله- أن تعرف حقيقتك عند الله فانظر إلى حقيقة الإيمان في قلبك ومنزلة العمل الصالح في قلبك ومنزلتك من الصالحات.

والقرآن بيّن لنا هذا؛ ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سبأ: ٣٧]، لا يُقرّبك إلى الله نسب؛ «**وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسَرِّعْ بِهِ نَسَبُهُ**»(١).

لا يُقربك من الله شَرَفُ رئاسة ولا سعة في الدنيا وإنما يقربك من الله إيمان صادق وعمل صالح تكون به من أولياء الله -سبحانه وتعالى-، فلا يغتر بالدعاوى ولا يركن إليها من غير إيمان صادق ولا عمل صالح إلا الأشقياء المنحرفون؛ فقد قال الله -عز وجل- عن اليهود والنصارى: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ ﴾ [البقرة: ١١١]، فلن يدخل الجنة إلا من أتى بالبرهان، والبرهان: هو الإيمان الصادق والعمل الصالح؛ ﴿ بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [البقرة: ١١٢]، وقال الله -عز وجل-: ﴿ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ ﴾ [النساء: ١٢٣]، فالاغترار بالدعاوى والمظاهر إنما هو سببٌ للإنحراف وطريقٌ للمنحرفين.

فإذا علم القلب أنّ صدق الدعوى وأنّ القرب من الله إنما هو بالإيمان الصادق والعمل الصالح أَقبل على هذا الأمر، فكان هذا القلب سليمًا صالحًا قريبًا من كل خير بعيدًا عن كل شر.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) في كتاب: الذكر والدعاء، باب: فضل الإجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر. من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ويَصلُح القلب بالقرآن: بأن يَعلَم من القرآن أنّ مَن أقبل على ما يحبه الله وترك ما قد يُحَبُّ ويُشتهى من أجل الله عوّضه الله خيرًا منه.

فيَعلم قلب المؤمن من تلاوته للقرآن أنه ما ترك أحدٌ شيئًا لله إلا عوّضه الله خيرًا منه؛ فيُثمِر ذلك صلاحًا في ذلك القلب؛ بأن يقدِّم محبوب الله على محبوب نفسه، وهو يَعلَم علم اليقين أنّ تَرْكه لهذا الأمر سيكون عنه عِوَضٌ خيرٌ منه في الدنيا والآخرة.

ألا ترى ما ذكره الله عن المهاجرين الأولين الذين هجروا أوطانهم وأموالهم وأحبابهم لله -سبحانه وتعالى-؟! هم يُحبون المكان الذي كانوا فيه ويُحبون أهليهم ويُحبون أموالهم لكنهم تركوها وهاجروا لله -سبحانه وتعالى- فرارًا بدينهم فعوَّضهم الله -عز وجل- طمأنينةً في قلوبهم وثباتًا على دينهم؛ حتى قيل لأحدهم من أحد الملوك: "أتترك دين محمد وأعطيكَ نصف مُلكي؟ -وقد كان وقع أسيرًا عند ذلك الملك- أتترك دين محمد وأعطيك نصف مُلكي؟ فقال: اخسأ عدو الله؛ فو الذي نفسي بيده لو أعطيتني ملكك وملك العرب وملك العجم وما في الأرض جميعها ما تركتُ دين محمدٍ طرفة عين"[1].

صلاحٌ في القلب أثمره يقينٌ بأن مَن قدّم محبوب الله على محبوب نفسه عوّضه الله خيرًا؛ فعوّضه طمأنينةً واستقامةً وصلابةً في الدِّين، وعوّضه الرزق الواسع في الدنيا والعزَّ والتمكين.

ألا ترى أنّ إبراهيم الخليل -عليه وعلى نبينا وعلى أنبياء الله أفضل الصلاة والتسليم- لمّا اعتزل قومه وأباه وما يدعون من دون الله عوّضه الله فوهب له إسحاق ويعقوب والذرية الصالحين.

ويوسف عليه السلام لمّا مَلَكَ نفسه من الوقوع مع امرأة العزيز التي هيأت نفسها له، وكانت ذات سلطان عليه، وغلَّقتِ الأبواب وقالت: هيت لك، لمّا مَلَكَ نفسه مع ما يَظهر في الدنيا مِن حَظْوةٍ لو

---

١) هو الصحابي الجليل عبد الله بن حذافة وأخرج هذه القصة ابن عساكر في تاريخه من طريق البيهقي، وكذا الحافظ في " الإصابة"، وله شاهد من حديث ابن عباس، موصولا عند ابن عساكر، وابن الأثير في " أسد الغابة " ٣/ ٢١٢.

فَعَل ومكانةٍ لو فَعَل، وكانت المرأة تغريه بجمالها وتغريه بسلطانها وتغريه بأنها ستجعل له مكانة في الأرض لا يَبلغها أحدٌ من الناس؛ لكنه عليه السلام صبر وأعرض عن امرأة العزيز؛ بل استحب السجن على أن يقع في هذا البلاء؛ فعوضه الله -عز وجل- بأن مكّن له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ويستمتع بما شاء مما أحل الله.

وأهل الكهف لمّا رأَوا فساد الناس واعتزلوا الناس وما يعبدون من دون الله؛ نشر الله لهم رحمته، وهيَّأ لهم أسباب الراحة، وجعلهم سببًا لهداية الضالين، فجعل لهم ثواب أولئك القوم.

ومريم بنت عمران لمّا أحصنت فرجها أكرمها الله، ونفخ فيه من روحه، وجعلها وابنها آية للعالمين.

وسليمان عليه السلام لمّا ألهَتْهُ الخيل عن ذكر ربه فأتلَفها لأنها ألْهته عن ذكر الله -سبحانه- عوَّضه الله بأعظم من الخيل، عوَّضه بالريح التي تجري بأمره والشياطين كل بناء وغوّاص.

فمَن ترك هواه وما تهواه نفسه من الشهوات لربه -سبحانه وتعالى- عوّضه الله من محبته وعبادته وطمأنينة قلبه والإنابة إليه والتوسيع عليه في الدنيا ما يفوق لذات الدنيا كلَّها. فإذا علم القلب هذا الأمر من تلاوته للقرآن أثَّر ذلك في قلبه صلاحًا عظيمًا.

والمسلم -أيها الإخوة والأخوات- إذا قرأ القرآن وتدبر القرآن يَعلم أنَّ القلب يمرض وأنّ القلب يتقلَّب، فيكون حريصًا على سلامة قلبه، حَذِرًا من آفات القلوب وأمراضها.

والمرض في القرآن هو مرض القلوب؛ وهو نوعان:

- مرض الشبهات.
- ومرض الشهوات.

فالشبهات: شكوك تطرأ على قلب الإنسان تبعده عن الرحمن.

والشهوات: ضعف الإرادة أمام ملذات الدنيا حتى يقع العبد في معصية الله -سبحانه وتعالى.

وقد يجتمع على العبد الأمران، فيكون قلبه مريضًا بمرض الشبهات ومرض الشهوات.

ومرض الشبهات في القلب -أيها الإخوة والأخوات- أخطر الأمراض على الإطلاق، فما مَرِضَ الإنسان بمرض أعظم من مرض الشبهات، وهو يثمر آفاتٍ خطيرة، أخطرها وأقبحها الشرك بالله -تعالى- وهو أشدُّ الفساد وأعظم الظلم، وما أظلم قلب بأعظم من الشرك بالله -سبحانه وتعالى-.

ويُثمِر -أيضًا- البدع الصارفة عن سنة النبي ﷺ المفسدة للقلوب؛ فإنها ضلالة تظلم بالقلب وتفسده؛ ولذا قال بعض السلف: "مَنْ جَلَسَ إِلَى صَاحِبِ بِدْعَةٍ ، أَوْرَثَهُ اللهُ الْعَمَى"[1]؛ أي عمى القلب، فإنّ المبتدع لا يدل الإنسان إلا على الضلالة، ولا يرشده إلا على الشر، فيقود الإنسان -والعياذ بالله- إلى عمى القلب.

ولذا كان السلف الصالح -رضوان الله عليهم- يُحذّرون من البدع، ويُحذّرون من أهلها، ويُحذّرون من مجالسة أهلها.

إنّ البدعة إذا وَقَرَت في القلب تُظلِم بقلب صاحبها حتى يقول ما لا يقبله العقلاء فضلًا عن أن يقبله مسلم، ألم تسمعوا لبعض أهل البدع يقولون: إنّ الولي يستطيع أن يخلق الجنين في بطن أمه!؛ لا حول ولا قوة إلا بالله! أهل الجاهلية الأولى ما قالوا هذا الأمر وإنما كانوا يقولون: إنّ الخالق هو الله -سبحانه وتعالى-، ولكنّ البدعة تُظلِم بعقل صاحبها وتُظلِم بقلب صاحبها حتى يَعمل ما لا يستسيغه العقلاء فضلًا عن كون الشرع يرده، ويقولُ ما لا يستسيغه العقلاء فضلًا عن كون الشرع يرده.

---

١) الإبانة ٢/ ٤٦٠ وهو للفضيل بن عياض

ومرض الشهوات -أيها الإخوة- وما أدراك ما مرض الشهوات! قد يبدوا صغيرًا ويبدأ قليلًا؛ ولكنه يتسلل إلى القلب، ويُظلِم بالقلب شيئًا فشيئًا إن لم يتب صاحبه منه.

النبي ﷺ يقول: «**إنَّ العبدَ إذا أخطأَ خطيئةً نُكِتت في قلبِهِ نُكْتةٌ سوداءُ، فإذا هوَ نزعَ واستَغفرَ وتابَ صُقِلَ قلبُهُ، وإن عادَ زيدَ فيها حتَّى تعلوَ قلبَهُ**»[١].

ولذلك يا عبد الله! إياك ثم إياك أن يَغرّك أنّ العلماء يقولون: "إنّ مرض الشبهات أعظمُ من مرض الشهوات" فإنهم لا يقصدون بهذا أن يُقلِّلوا من شرِّ مرض الشهوات؛ ولكنهم يريدون أن يبيّنوا شرَّ مرض الشبهات، فمرض الشهوات شرُّه عظيم وفساده في القلب كبير.

وإياك يا عبد الله إياك أن تغتر بصغر الذنب فمَن أقدَم على الصغير أوشك أن يُقدِم على الكبير؛ ولذلك يقول النبي ﷺ: «**لعن اللهُ السارقَ، يسرقُ البيضةَ فتقطعُ يدُه ، ويسرقُ الحبلَ فتقطعُ يدُه**»[٢]، المعلوم -يا إخوة- أن البيضة لا تبلغ نصابًا ولا تُقطع اليد بسبب سرقتها، وأنّ الحبل لا يبلغ نصابًا ولا تُقطع اليد بسبب سرقته؛ ولكنّ الذي يسرق البيضة يوشك أن يسرق ما فوقها، وأن يسرق ما فوقها؛ حتى تقطع يده، فالذنوب يسير فيها الإنسان شيئًا فشيئًا.

فانتبه يا عبد الله! فإنّ الإنسان قد يستصغر الذنب فيبدأ به، ثم يدخل فيما هو أعلى، ثم يدخل فيما هو أعلى، ثم يدخل فيما هو أعلى، ثم يغفل عن التوبة، حتى يرين على قلبه -والعياذ بالله-.

خَـلِّ[٣] الذنُـوبَ صَغيرهَا ... وَكَبيــرهَا؛ فُهـو التُّـقَى
وَاصْنَـعْ كَمَاشٍ فَوْقَ أَرْضِ ... الشَّـوْكِ يَحْـــذَرُ مَا يَرَى

---

١) أخرجه الترمذي في سننه (٣٣٣٤) كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة ويل للمطففين. من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وقال: هذا حديث حسن صحيح.

٢) متفق عليه؛ أخرجه البخاري (٦٤٠١) في كتاب: الحدود، باب: لعن السارق إذا لم يُسَمَّ. ومسلم (١٦٨٧) في كتاب: الحدود، باب: حد السرقة ونصابها. من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٣) التبصرة لابن الجوزي ٢٤١

لا تَحقـــــرَنَّ صغيـــــرةً　　　إنَّ الجِبَـــالَ مِنَ الحَصَى

ويقول القائل [1]:

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ القُلُوب　　　وَقَـــدْ يُورِثُ الذُّلّ إِدْمَانُهَا

وتَرْكُ الذُّنُوبِ حَيَاةُ الْقُلُــوب　　　وَخَيْرٌ لِنَفْسِك عِصْيَانُـــهَا

فالمرض -أيها الإخوة- الذي ذُكِرَ في القرآن هو مرض القلوب، وقد بيَّن الله -عز وجل- أنّ القلوب تمرض بالشبهات -كما قلنا-؛ كما قال الله -عز وجل-: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة: ١٠]، وكما قال الله -عز وجل-: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٥].

والقلوب قد تمرض بالشهوات -كما قلنا-؛ ومن ذلك قول ربنا -سبحانه وتعالى-: ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ ﴾ الأحزاب: ٣٢.

فالقلب قد يَمرض بالشبهة، وقد يمرض بالشهوة، وعلاج هذين المرضَين الفتّاكَين إنما هو بالقرآن، بكلام ربنا -سبحانه وتعالى-.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "جماع أمراض القلوب: هو أمراض الشبهات والشهوات، والقرآن شفاءٌ للنوعَين، فيه من البيِّنات والبراهين القطعيّة ما يُبيِّن الحق من الباطل؛ فتزول أمراض الشبهة، وأمّا شفاؤه لمرض الشهوات فذلك بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة والتزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة"[2].

١) الجواب الكافي، لابن القيم (٣٠)

٢) إغاثة اللهفان ص ٤٤

ويَصلُح القلب بالقرآن: بالحذر من الغفلة وأهلِها، فإنّ الله في كتابه الكريم حذَّر من غفلة القلب، وحذَّر من الغافلين؛ ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يونس: ٩٢]، ﴿ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف: ٢٨].

ويَصلُح القلب بالقرآن: إذا عَلِمَ القلب مِن القرآن أنّ مَن ترك ما ينفعه وترك الخير مع الإمكان؛ ابتلاه الله -عز وجل- بالاشتغال بما يضرُّه وحُرِمَ ما ينفعُه، وأنّ من استعمل نِعم الله -عز وجل- في معاصيه أشغلَه بها؛ فانقلبت عليه نِقمًا.

الله -عز وجل- بيّن لنا في القرآن أن المشركين لمّا زهدوا في عبادة الرحمن ابتلوا بعبادة الأوثان.

وأنّ المشركين لمّا عُرض عليهم الإيمان أوَّل مرة فعرفوه ثم تركوه قلّب الله قلوبهم وطبع عليها وختم عيها؛ فلا يؤمنون حتى يرَوا العذاب الأليم.

ولمّا بيّن لهم الصراط المستقيم وزاغوا عنه باختيارهم ورضًا بطريق الغيِّ والضلالة؛ عوقبوا بأن أزاغ الله قلوبهم، وجعلهم حائرين في طريقهم.

ولمّا أهانوا آيات الله ورُسُله؛ أهانهم الله بالعذاب المهين.

ولمّا استكبروا عن الانقياد للحق؛ أذلهم الله في الدنيا والآخرة.

ولمّا منعوا مساجد الله وخرَّبوها؛ ما كان لهم بعد ذلك أن يدخلوها إلا خائفين.

فالقاعدة الشرعية التي يدل عليها القرآن: أنّ من تيسَّر له الخير فتركه واشتغل عنه بضدِّه؛ أنّ الله -عز وجل- يبتليه بالشرور ويحرمه ذلك الخير.

ويَصلُح القلب بالقرآن: أن يَعلَم الإنسان أنّ القلوب بيد الرحمن يقلِّبها كيف يشاء، فيُقبِل على الله، ويسأله سلامة قلبه وثباته على الحق والهدى؛ ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن

لَدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ [آل عمران: ٨]، وكان أكثر دعاء النبي ﷺ: «**يا مُقلِّبَ القلوبِ ثبِّت قلبي على دينِكَ**»(١) .

ويَصلُح القلب بالقرآن: بأن يَعلَم صاحبه أنَّ خيرَه وسعادتَه في سلامته للمسلمين الأخيار وسلامته من الأخلاق الرديئة، يقول الله -عز وجل-: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحشر: ١٠].

ويَصلُح القلب بالقرآن: بأن يجعله المسلم سميرَه وأنيسَه فيُكثر من تلاوته وتدبره فيكون غالبًا على ذكره عامرًا به وقته؛ فتحصل له طمأنينة القلب وسكينة القلب؛ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد: ٢٨].

ويقول النبي ﷺ: «وما اجتمعَ قومٌ في بيت من بيوتِ اللهِ، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلتْ عليهم السكينةُ، وغشيتْهم الرحمةُ وحفّتهم الملائكةُ، وذكرَهم اللهُ فيمن عنده» (٢) .

والسكينة -أيها الإخوة والأخوات- أمرٌ يجعله الله في قلب الإنسان فيطمئن ويوقِن، ولا يكون قلقًا ولا شاكًّا ولا مرتابًا ، وهذه السكينة يَسعَد بها الإنسان ويَزداد بها الإيمان؛ ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ﴾ [الفتح: ٤]. فذِكر الله ولا سيَّما تلاوة القرآن فإنها أعظم ذكر الله -عز وجل- سببٌ لطمانينة القلوب، وسببٌ لنزول السكينة في القلوب، وسببٌ لغِشيان الرحمة، وكلُّ هذا أمرٌ يُصلِح القلب ويكون له أعظم الأثر في القلب.

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٢٢)، كتاب: الدعوات، باب: حدثنا أبو موسى الأنصاري، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦/ ٣٠٩) وصحيح الترمذي (٣/ ١٧١).

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٧٣)، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن. من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فينبغي علينا -أيها الإخوة- أن نحرص على أن نُكثر من تلاوة كتاب ربنا وأن نجعل لخير الكلام خير الأوقات، لا ينبغي -أيها الإخوة- أن نجعل لتلاوة القرآن أقلَّ أوقاتنا، أو الأوقات التي لا نكون فيها فارغين؛ بل ينبغي أن نجعل لكلام ربنا حظًّا عظيمًا من وقتنا، فنتلوا كلام الله ونتدبر كلام الله ونجعل قلوبنا تخشع صادقةً لكلام الله -سبحانه وتعالى-.

وبالجملة -أيها الفضلاء الأخيار-؛ إنّ الخير والنفع والصلاح والسعادة في الدنيا والآخرة: في القرآن وتدبره، ولن تنتفع قلوبنا بأعظم من كلام ربنا -سبحانه وتعالى-.

يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "لا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر؛ فإنه يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله"[1].

وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة والتي بها فساد القلب وهلاكه، يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "فلو علِم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها، فإذا قرأه بتفكُّر حتى إذا مرَّ بآيةٍ هو محتاج إليها في شفاء قلبه كرَّرها ولو مائة مرَّة، ولو ليلةً كاملة"، فقراءة القرآن بالتفكُّر هي أصلُ صلاح القلب، ولهذا قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: "لا تَهُذوا القرآن هَذَّ الشِّعر، ولا تَنثروه نثر الدَّقْل، وقفوا عند عجائبه وحرِّكوا به القلوب، ولا يكن همُّ أحدكم آخر السورة" اهـ.

---

١) مفتاح دار السعادة ص ١٨٧.

٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان ١/ ٣٤٤، وفي سنن أبي داود ٢/ ٧٧، أتى ابن مسعود رجل فقال: إني أقرأ المفصل في ركعة، فقال: أهذا كهذ الشعر ونثرًا كنثر الدقل؟ قال أبو سليمان الخطابي في معالم السنن ١/ ٢٨٣: "الهذ سرعة القراءة، وإنما عاب عليه ذلك؛ لأنه إذا أسرع القراءة ولم يرتلها فاته فهم القرآن وإدراك معانيه".

فصلاحنا وخيرنا -أيها الإخوة- بأن نتلوَا كلام ربنا -سبحانه وتعالى- متدبرين متفكرين، وأن نخشع لكلام ربنا خشوعًا صادقًا يكون في القلب يُثمر صلاحًا ويُثمر خيرًا ويُثمر بركةً ويُثمر طمأنينةً.

إنَّ مَن أراد الصلاح ودعا إلى الإصلاح ينبغي عليه أن يتمسك بكتاب الله -سبحانه وتعالى-، ومِن تَمسُّكه بكتاب الله أن يَتمسَّك بسنة النبي ﷺ.

والله ثم والله ثم والله لن يُصلِح قلوب الأمَّة ولن يُصلِح حال الأمّة أحزابٌ وجماعاتٌ وأفكارٌ يُطلقها فلان وفلان؛ وإنما يُصلِح الأمَّة ويُصلِح قلوب الأمَّة: لزوم كتاب الله ولزوم سنة رسول الله ﷺ بفَهم سلف الأمّة؛ فهذا هو طريق الصلاح والإصلاح، ومن سلكه كان من المصلحين، ومن تركه وقال سآوي إلى غيره يعصمني من الفتن، وقال سأكون من الجماعة الفلانية أو مع الحزب الفلاني أو سآخذ بآراء فلان وفلان من دون كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ؛ والله ليكوننّ مِن المفسدين وليكوننّ من الغارقين في الفتن وليكوننّ ممن يقودُ الأمة إلى الشر العظيم.

فإذا أردنا -أيها الإخوة- أن نكون صالحِين مصلِحين فلنبدأ بأنفسنا؛ بأن نربطها بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ بخير فهم؛ بفهم الأخيار، بفهم صحابة رسول الله ﷺ.

ثم لننقل ذلك إلى بيوتنا إلى زوجاتنا إلى أبنائنا إلى بناتنا؛ نعلِّمهم الحرص على حفظ كلام الله -سبحانه وتعالى-، والحرص على تدبر كلام الله -سبحانه وتعالى-، والحرص على العمل بما في كتاب الله -عز وجل-، وأن نكون في ذلك على منهج السلف الصالح -رضوان الله عليهم-. فإذا بنَينا أسرتنا على هذا المنهج الرشيد اجتمعتِ الأُسَرُ على هذا الخير فتَسعد البلاد وتَصلح البلاد والأحوال بهذا الطريق المستقيم.

فأسأل الله -عز وجل- بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يرزقنا قلوبًا سليمة، وأن يُصلِح قلوبنا بكلامه -سبحانه وتعالى-، وأن يجعل قلوبنا خاشعةً له، منيبةً له، موحِّدةً له -سبحانه

وتعالى-، وأن يجعلنا مفاتيح للخير مغاليق للشر، وأن يجعلنا رحمةً على المؤمنين، ورحمةً على البلاد والعباد.

والله تعالى أعلى وأعلم، وصلى الله على نبينا وسلم.